أدب الحـــرب

تطهر الفارس

قصص

سمير عبدالفتاح

أدب الحـــــرب
١٩٩٦



اهـــــداء

الى رفيــق طفــولتى ٠٠ وابن شــقيقى الأكبر

الشـــهيد شـــفيق عبد الســـلام

فلتنــم فى ســـلام

مقدمـــة

لابد من الاعتراف :

بأن الحرب الحقيقية تبدأ حين تتوقف المدافع •• وحين يعود الحبيب الى حبيبه ، والشهيد الى أهله ، ويقوم الحوار بين الهدم والبناء ، والفقد والتلاقى ، واليأس والأمل •

ومن هنا لا نستطيع الا أن نقول بأن كل أدب جيد وفاعل هو — بالضرورة — « أدب حــرب » ، وخطوات فى اتجــاه الســلام •

فالحــرب قنطرة بين برزخين ، وانتقــال من « الجهــاد الأصغر » الى « الجهاد الأكبر » •

ومن ثم نحارب الكراهية انتصارا للحب ، ونحارب الظلم حبا فى العدل ، ونحارب الاستعباد حبا فى العتق والمساواة ، ونحارب القهر لصالح الارادة والاختيار ، ونحارب الانكسار والاستلاب طمعا فى المجد والحرية .

الحرب — أيضا — قرار سياسى ، والحب قرار اجتماعى ، وما يحدث « على الجبهات » اعمال للأول ، وتأكيد للثانى ، وما بين البرزخين أرض لابد أن تزرع .. وحياة لابد أن تقوم ..

سمير عبد الفتاح

القاهرة — ابريل ١٩٩٥

البحث عن صوفى

من تحت نافذتها المغلقة .. الخالية من كل بهجة أو جمال ، ناديت على أختى الكبرى فلم ترد ..

أخبرنى دليلى بأسماء أولادها ، فناديتها بأسمائهم ولم ترد، تطوع مرافقى وقذف شباكها بطوبة فانفتح بعسر لافت ، وبانت أختى الكبرى بصدرها المترهل المبلول من أثر الغسيل ، وتأملتنى فترة طويلة قبل أن تصرخ باسمى وترجونى البقاء فى مكانى !

وكادت ترمى بنفسها من النافذة ، حين نهيتها عن ذلك ، وهالنى بؤس المكان ، وما هى الا ثوان حتى نزلت شقيقتى هائمة بقميصها الحائل المبتل ، وقدميها العاريتين ، وصاحت وكأنها فى حلم :

ــ أخويا .. يا .. يا .. يا .

وأخذتني في حضنها ، فسقطنا على الأرض ، وسقط عكازى بعيدا ، لكنها لم تلتفت ، وقبلت خدى وكفى وبكت على رأسى !

ثم صاحت •• وناحت •• وباحت ، وأنا مستسلم تحتها كجوال من القطن القديم !

تجمع الناس وفتحت الأفواه والنوافذ ، فاخبرتهم وهى لا تصدق نفسها أننى أخوها الضـابط ، الذى فقد فى الحرب الأخيرة • فسمعت زغرودتين وتكبيرة •• وسمعت من يغلق الباب ، ويلعن الجميع !

كان ما يشغلنى هو : كيف أقف على قدمى ثانية ، دون أدنى اهانة ، أو صعوبة تهدم فرحتها بعودتى •

لذا رفضت يدها حين مدتهـا لتنهضنى ، ورجوتهـا أن تناولنى عكازى المعدنى البعيد ، وتتركنى أقوم بطريقتى التى تعلمتها فى مستشفيات العدو !!

فتأملتنى برهة ، ولم تسألنى عما حدث ، لكنها تقدمتنى وهى تفسح الطريق وتنقل نظراتها الحيرى بين الأرض ، وموطىء عكازى !! وكأنها تخـاف أن تعرف ما يحطم قلبها ، ويشـمت جيرانها وأعداءها •

وحين دعتنى للدخـول هاجت أوزات ، وفزعت أرانب ، وأنا أتقدم نحو الأرض الزلقة ، قبل أن تغشـانى عتمة المدخل الباردة ، اللحدية ، العطنة ، وأشعر بالصراصير تفر من تحتى ، والذباب اللزج يسبقنى الى النور المنسرب من فتحات المبانى !

ــ اطلع يا ضنايا .. اطلع .

فأحذر ظلام السلالم الصغيرة ، وغياب الدرابزين ،وأراها تسبقنى الى الغرفة الوحيدة المعتمة ، وتعود بلمبـة كيروسينية بائسة ما تلبث أن تنطفىء . وأراها « تهش » الأولاد عن طريقى فأتقدم مأخوذا ثقيل الخطو .. وكأننى أخوض فى قبرى .

« كان سلم الأسر أوسع قليلا ، وأقل برودة وظلاما ، ولابد أنه كان معدنيا ، لاننى كنت أسمع وقع قدمى الصناعية واضحة على درجاته الحلزونية الصلبـة .. بينمـا حـارسى يسحبنى من قيـدى الحديدى ، ويؤمن العصابة السوداء على عينى » .

ــ اطلع يا ضنايا .. اطلع .

فآخـذ طـريقى غـير ملتفت الى شىء ، وأراهـا ترتب « الكنبة الاسيوطى » ذات الكسوة القديمة ، والقطن البارز

المتهدل ، وأرى شعرها الذى لم يقاوم السنين أشيب ملبدا تحت طرحتها الباهتة !

فهل أنا فى حضرة أختى اليانعــة ، عاشــقة عبد الحليم وازنافور وأم كلثوم •• أم فى حضرة عجوز تعرفنى ولا أعرفها ؟

ــ تفضل يا ضنايا •• تفضل •

ودعتنى للجلوس فى منطقة خالية من فضــلات الكتاكيت ، وكراريس الأولاد ، وقالت ان زوجها ــ منه لله ــ قطع الكهرباء قبل أن يهجرها ، وقال انها حرام !

رجوتها أن تفتح النافذة قبل أن أختنق ، فثار غبــار ، وهربت عناكب ، ولابد أنها شــعرت بعريها ، لأنها لبست روب زوجها الصوف على الرغم من حرارة المكان •

« وحينما تضــاء الذاكرة : أراها جالسة على نجيلة حديقتنا المشذبة ، وأرى طارق يلعب بكرته الملونة بين أشجار الرمان واليوسفى ، ويدور حول مقاعــد الخيزران البيضــاء بســاندها الزرقــاء الوثيرة •

وحين أصعد على شجرة الخوخ القصيرة أرى الخليج بامتداده الخرافى الجليل ، وهو يلثم بمويجاته

الحانيـــة سور حديقتنـــا ، وأرى أبى ـ مرشـــد السفن ـ يأتينا محملا بالحلوى والفاكهة • يشـــير لبحـــارة الســـفن العـــابرة وهى تدخل القنـــاة : «Good Bye — Good Bye» بينمـــا تعطر ماما هواء « فيلتنا » بدخـــان الاستاكوزا والكابوريا وكفتة الجمبرى • تناديك يا زينـــات لتقطفى بعض الزهور ، وتضعيها على المـــائدة •

فمن ذا الذى أطفأ شموع الذاكرة ، وسلب حلمنا ومرحنا ، وأطفأ نور ثغرك يا سويس ؟

من ذا الـــذى سرق البـــراءة والوضـــاءة والســـكون •• وشحننا فى عربـــات نقل الأتربة . والانفجارات من حولنا تكشف الطريق ، وتهيـــل الرمال على رؤوســـنا ؟

من ذا الذى يحاسبنا على ما خسرنا •• ويعيد للقلب بكارته الأولى ؟ » •

ـ تأكل يا ضنايا ؟ !

ودون أن تنتظر ردى ، أشـــعلت وابور الكيروســـين ،

« وبرشت » على الأرض ، فبدت لوعة السنين على جسمها ، ووجهها الكليل !!

« قـالوا : احملوا ما تستطيعون ، فتركنـا
كراريس الواجب ونوت المحاضرات لنسيم الحديقة،
وحملت ماما بعض المـلابس والأغطيـة ، وحملت
« زينات » بعض الكتب ، وهدايا خطيبها الأسير .

فهل كنا بازاء البداية .. أم نهاية البداية ؟ » .

سحبت أختى طاسة محروقة ــ مثنية الحواف ــ من تحت سريرها القديم ووضعتها على نار الوابور النزق الحرون ، وقبل أن تشتعل من فرط الحرارة ، سحبت قدرة الســمن المغطـاة بلفافة متسخة من بقايا أحد سراويل زوجها ، وبملعقة ألومنيوم قديمة ــ لينة الذراع ــ غرفت قدرا من السمن ، ففاحت رائحته البلاستيكية الغريبة ، ولونه المخضر ، ورمته فى الطاسة القديمة فاشتعل حريق صغير ما لبث أن توقف .

ــ شفت ما جرى لوالدك يا عبد الحميد ..

ــ ربنـا يرحمـه !

ــ مات يا روحى ، وهو يحمـل سـلاحه .. ودفنوه فى « الجنـاين » .

— ...... !

دمعت عيناها ، فتكوم الأولاد حولها ، لكنهـا صرفتهم باشارة ناهية ، ومسحت عينيها بظهر كفها ، فتركت دمعة كبيرة تتفجر فى طاسـة السمن الحارقة ، وأخرى تتوتر على ظهر يدها التى مالت للدكنة والخشونة !

« لقد غيرت الهجرة كل شيء فينا ، فعدنا غير ما ذهبنا .. شحنونا ليلا وتركونا فوق أسطح المجالس القروية ، ومستشفيات المدن البعيدة .

قالوا : اصبروا من أجل الوطن .. ستعودون خلال أشهر قليلة .

وقالوا : بلادى .. بلادى لك حبى وفؤادى .

لكن الغربة طالت ، فتغيرت أحوال ، وتبدلت أعراف ، حيث هاجر طارق الى كندا وانقطعت أخباره ، وعمـلت بالجيش ، ولم تستطع أختى الكبرى أن تصوم صـوم العازبات ، فزوجناها لمن أفطرها درءا للفضيحة ، ولم يبق لى سوى ذكراك يا صوفى » !

— محمد . وفتوح . وفاطمة . واسماعيل . ونحمده . وذياد . وكفايه .

— أولادك ؟

ـــ أولادى .. ســـلموا على خالكم يا أولاد .. أهـــلا وسهلا .. أهلا وسهلا .

ـــ كلهم ولدوا هنا ؟ .. فى هذا المكان ؟

ـــ كلهم .. عـــدا فتحيـــة ، وســـعدان ، ومبروكة .. تعيش أنت .

« لم تكن أختى تســـكن فى شقة كما يفهمها البشر : فيها مكان للنـــوم ، ومكان للاســـترخاء ، ومكان للجلوس ، ومكان للأكل ، ومكان للاغتسال، ومكان للأولاد ، ومجال جوى يمارس فيه البصر حقه الانسانى البسيط الذى حسمته الصراصير .

ولم تكن تسكن فى بيت ريفى فيه مكان للبشر، ومكان للبقر ، لكنهـــا كانت تســـكن فى مربع من الطوب الأخضر ، المكسو بطين وجير ، ومشروع صالة مسقوفة بخيش وبوص ترتع فيها الفئران » .

ـــ سألتك عن زوجك ولم تردى .

ـــ زوجى ؟ .. زوجى راح مع الاخوان !

ـــ أى اخوان ؟

ـــ الاخوان ذوو الذقون .. شكوت من وجودهم هنـــا فضربنى وكاد يستحل دمى !

ـ زوجك ؟ الأجير ؟ الأمى ؟ !

ـ ترك عمله وقال انه حرام .

ـ انه اختيارك يا زينات .. مسئوليتك .

تزاحمت الدموع فى عينيها ، وغمغمت وهى تمسح عينيها بطرحتهـا :

ـ الدنيـا تغيرت يابن والدى .. والنـاس تغيرت .. اغتنى من اغتنى ، وضل من ضل ، وقام من قام . ولكن أين كنت ؟

ـ فى الأسر .

ـ أسروك ؟ .. أولاد الـ ... ماذا فعلت لهم ؟

« ليتنى أعرف من أسرنى بالضبط .. وهـل عبرت الحدود من الشرق الى الغرب ، أم من الغرب الى الشرق ؟

كل ما أدريه هو أننى شعرت بشىء سـاخن يدخل قدمى اليسرى ، فى ذلك الجـزء المفصـلى الذى لا تستطيع نقود الدنيا أن تعوضـه ، فشعرت بالبرد والرواح . ثم سـمعت من يكلمنى بعربيـة ركيكة ففهمت كل شىء !

ـ « اسمك .. ورتبتك .. وعنوانك » .

فغيرت اسمى ورتبتى أملا فى الخروج بسرعة .

قالوا : سنقطعها حرصا على حياتك ، وقذفوا فى
وريدى بشىء بارد .

ـ عد معنـا : واحد .. اثنان .. ثلاث ..
عددت حتى رأيت « صوفى » على شاطىء البحر :

« كانت تنتظرنى بفستانها الارجوانى القصير ، وشعرها المقصوص بطريقة « الالجرسون » ، وحين تلمحنى تدعى أنها لا ترانى ، فأغلق عينيها بكفى ، وألثم عنقها الأثيل . تضربنى على كفى وتستنكر جرأتى .

فأحملها على صدرى وأنزل الخليج ، تركل وتستحيل .. وحين تعرف المصير ، تلبس لباس البحر ، فنطارد الأمواج وننتظر الزبد !

نغوص تحت الموج فنرى عروس البحر تبارك حبنا .. وفى غفلة من النوارس نتبادل القبل فيضحك السمك الملون ، وتهجع الدلافين وشقائق النعمان .

وحين يقبل المساء ، نشعر بتكسر المحار تحت أقدامنا .. وتمتلىء السماء بالفراشات والعصافير الملونة » .

— « أنت .. أنت يا مصرى . قم وأخل سريرك .. ذكرنا باسمك لو سمحت » .

« كان الهروب من المعتقل لا يعنى سوى الانتحار ! .. حيث تمتد الصحراء فى كل ناحية ، فى مكان لم تعرفه خرائط البشر ، ولا يمكن أن تسكنه سوى الابراص والثعابين والدفانات » .

— كل يا ضنابا .. كل ..

وقدمت البيض والمخللات ، فأزحت الطعام بعد لقمتين .. وسألت عنك يا صوفى :

— صوفى ؟ .. صوفى من ؟

— زميلتنا فى مدرسة السلام .

— يا ... ه .. صفاء البغدادى !! أمازلت تذكرها ؟

— أين أجدها ؟

— لم تهاجر معنا .. ولكنك لم تكن تهتم بها .. فماذا حدث ؟

« ولماذا لا أهتم .. بعد أن تغير كل شىء.. ولم يبق حولى ما أصدقه .. أو أركن اليه ؟ »

ـ كل يا ضنايا .. كل .

« بحثت عنها فى كل مكان .. فى كشوف الموتى
والأحياء ، المقيمين والغائبين . فهل كنت أبحث عن
ذلك المخلوق المتعين الواضح الذى يمكن وصفه
وتحديده ؟ .. أم كنت أبحث عن ماض وذكرى ؟
عن مرفأ للصبا والمراح .. أم مشتى للكهولة
والرواح ؟ » .

ـ آخيرا أصبح لى أخ ألجأ اليه .. ظهر يسندنى ..
خل يسعدنى ويرافقنى . لكنك لم تقل لى متى عدت من الأسر ؟

ـ منذ يومين .

ـ يومين ؟ .. بعد كل هذه السنين ؟

« حجزونى لأسباب لا أعرفها .. وحين
تركونى خرجت من سجن العدو الى سجن الوطن..
من العراء والظلام الكامل ، الى العراء التام !

قالوا : لم تكن من المصنفين فاعذرنا ..

وقالوا : دفناه بأيدينا فمن تكون اذن ؟

وقالوا : ستنتظر عدة أسابيع .. فلا يجب أن
تخترقنا مخابرات العدو !!

وقالوا .. وقالوا .. وقالوا ..

فتشككت فى اسمى وفى جسمى » .

كانت الناس قد سئمت الكلام عن الحروب والجروح .. وتخلصت من الســواتر والزجاج الأزرق ، وأنزلت كشافات الليل وصفارات الانذار . ثم فتحت ذراعيها لمباهج الحيــاة .. قبل أن تبدأ حروبهم الحقيقية !

ــ عبد الحميد .. عش معى يا عبد الحميد .. مع أختك وحبيبتك .. احمنى يا عبد الحميد .. أنت آخر من بقى لى .. أنت ظهرى وسندى ، ورأس مالى . عبد الحميد .. رد على يا عبد الحميد .. عبد الحميد .. رد على يا عبد الحميد ..

« كانت الشمس قد غربت فى جبها .. حين سقطت روحى فى جب ، وعاندتنى الأمانى . ولم يعد ثمة ما يمنعنى من البحث عن صــوفى ، أو يشغلنى عن بذل الجهد والسفر الطويل .

لكنى حين تدبرت الأمر بعقلى الذاهب هالنى أننى لا أذكر شكلها .

ولا أحتفظ لها بأى صورة تعيننى على رؤيتها.. لكن الرجوع لم يكن ممكنا .. والوقت لا يشغلنى ولكن تشغلنى بدايات البداية » !

ــ اشبع يا ضنايا •• اشبع •

قالت أختى ذلك ، حين أزحت الطعـــام جانبا ، وسحبت عكازى الثقيل •• وبحركة تعلمتها فى مستشفيات العدو ، وقفت على قدمى وأخـــذت طريقى الى الخارج ، دون أن أصـــافح أختى الكبرى •• أو أجيب على أسئلتها الحيرى •

وبعد أن تجـــاوزت المدخل اللحـــدى العطن ، تقيـــأت ما أكلت على جانب ، وشـــعرت بروحى تخف ، والهواء العليـــل يحملنى على هدبيـــه ، وسمعت أختى تنادينى بصـــوت آفل ، دامع متباعد ، وترجونى الاياب • فلا أملك الا أن أفرد قلوعى لريح المـــوانى البعيـــدة •• وأهيم نحو حضـــنك المـــأسور يا صـــوفى !!

أخـــى محمـــود

أخـــى محمـــود

فجـأة ..

وفى سكون ليل قريتنا ، وسلامها السادر ، صرخت أمى صرخة اهتزت لها أقطار الدنيا .. وسقطت ثمار الحقول !

فزعت من نومى وتعلقت بثوبها ..

ولأنهـا الصرخـة الأولى التى تسمعها القرية منذ موت زغلول ، وأحداث دميـاط ودنشواى والمنصـورة فقد تجمع الناس فى لغط فازع مفزوع تطايرت خلاله عشرات الأسـئلة ، وتصادمت مئات العيون ، ثم سكن الجميع حين آخبر الشرطى أبى بموت محمود !

ـ كبد .... د .. دى !

صرخت أمى وسقطت على الأرض .

تمالك أبى فتعقبناه الى نقطة الشرطة .

كان الظلام حالكا ، والأرض باردة ومبتلة فزلق أبى عدة مرات ، ولطمت خدى عدة مرات ، وشعرت بالبرد يصـــدمنى ، ويؤلم شفتى وأسنانى !

طلب الضابط بطاقة أبى ، وتريث قبل أن يؤكد الخبر ، وحين تعجل أبى ذلك ، وكاد يشق هدومه ، مد الضـــابط يده بثياب محمود وساعته وأوراقه ، فتهدج صوت أبى ، وارتجفت يده الممدودة فى الهواء الثقيل .. وتصلبت !

صرخت بأعلى صوتى ولعنت العالم .

لعنت نفسى وبكيت .

حملنى رجل الى الخارج فازدادت الدنيا برودة وظلاما ، صرخت باسم شقيقى غير مصدق :

ـ « محمـــود ..

ثمر المستحيل الدانى

شجر القلب النـــازف

اننى أصـــدق موت عزرائيل .. ولا أصـــدق موتك يا محمود » !

* * *

كانت المصابيح قد تزاحمت ، حين وقفت عربة ســوداء ، ونزل عســاكر كثيرون • وحين أنزلوه صرخت أمى وتكاثف البرد •

صافح كبيرهم أبى فاخترقت الرصاصــات كبد الســماء وســال دم •

طلب أبى رؤية ابنه قبل أن يدفن ، فمنعه الرجل الكبير ذو النجوم على كتفه ، وقال ان للموت حرمة !

وحين أصر أبى على ذلك ، أخذه الرجــل الى هنــاك متحرجا ، وأزاح الحجــاب عن كومة من اللحم المعجون والدم المتجلط ، فصرخ أبى فزعا ، وأغلق أنفه متقززا •

وحين تقيأ جانبا ، صرخت النسوة ، ولطمن الخدود •

ومن البعيد عوت ذئاب ، وهربت ضفادع •

صرح زميل لمحمود أنه لم يبك على أبيه مثلما بكى على محمود ، فسألته أمى ان كان قد طلب شيئا قبل آن يموت :

ــ سأل ؟ ضحك ؟ نام ؟ أكل ؟ شرب ؟

ــ •••••• !!

أكد قائده أنه أبلى بلاء حسنا فى الحرب ، فسخر أبى وقال:

ــ « أى حرب يا حضرة المحــارب ؟ أنت لا تعرف معنى

أن يموت ابن ! معنى أن يقتطع جزء من روحك وتحـاول أن تستبدله بكلمات •• اسكت يا حضرة المحارب اسكت » !!

صرخت بأعلى صوتى :

ــ فلتسقط اسرائيل •••

فنهرنى رجل ، وقال كف عن الشعارات !!

تعالت نقنقات الضفادع ، وتصادمت الرعود والمشاعر •

ــ « اسرائيـل •• لمـاذا تقتـل اخوتنـا
وأصدقاءنا •• ومن نحب من الناس ؟ لمـاذا تأخذهم
الى غرفتها البعيدة وتعيدهم مفرومين متجلطين ؟

ألا تجد من يضربها •• ويقذفها بالطوب » ؟

فى الصـباح هربت من أبى وسـافرت الى البندر ، قلت لمندوب التجنيد :

ــ أريد أن أتطوع فورا ••

رمقنى بطريقة لم تعجبنى ، وسألنى باستهانة :

ــ كم عمرك يا حبيبى ؟

شببت على أطراف أصابعى وقلت :

ـ ١١ سـنة .

ضحك وسـألنى :

ـ ولمـاذا تريد أن تتطوع فورا .. فورا ؟

قـلت :

ـ « لأحارب من قتلوا أخى » .. وبكيت على جانب .

ربت على كتفى ونصحنى كثيرا ، فدفعت يده وتضورت كمـدا .

قـلت :

ـ ألا تملكون سوى النصائح ؟

بهت الرجل فتركته ومضيت .

سألت رجلا عن الطريق الى الحرب فتركنى ومضى !

فكرت أن أذهب الى هنـاك وحدى ، وفكرت أن أقذف الدنيـا بطوبى ، لكن البرد كان قارسا ، والريح تدخـل عينى ولا تطـلع أبدا .

فهل تمر الأمور بكل هذه البساطة ؟

بكل هـذه السهولة ؟ .

كان ــ يا الهى •• هــل أصــبح محمـــود يأتى بعد « كان » ؟ ــ كان يجلســنى فــوق وابور البسب ، ويقــذفنى كطوبة •• كان يحملنى على كتفيــه فأكــاد ألامس النجــوم ، « كان » •• و « كان » •• و « كان » •

وكنت أستظل بشجاعته ، أفتخر أمام الأولاد بانتســابى اليــه •

كان يكفى أن أصيح مستجيرا :

ــ يا محمــود •

ليكف الأولاد عن ملاحقتى فى الحقول !

وكأننى استجرت بالسيد البدوى :

ــ يا بدوى !! ••

كان يحدثنى عن الحرب الأخيرة ، وعن هزيمتنا المخجلة •• عن عرابى وأحمس وقطز •

ويوم طلبوه للجهاد لم ينم •• ولم أنم •

وحين أتانا شاحبا مغبرا ضحكنا من شعره الحليق ومنظره « المبعكك » ، بعدت عنه حتى لا يفرم قدمى بحذائه الثقيل •• لحظ ذلك فطــاردنى ضاحكا •

تمنيت أن يطـاردنى ما حييت ، وتعجلت اليـوم الذى ألبس مثله !

عانقته أمى وذبحت بطة كبيرة ، وأمضيت الليل — أنـا وأخواتى — نتأمل حذاءه الثقيل ، وندخل سيقاننا فيه فنسقط على الأرض ونقوم ..

نتعارك لنحمله على صدورنا الصغيرة .

وحين سافر لم نجد ما يضحكنا .

— كبدى .. دى .. دى .. دى !!

* * *

كان أبى يستضيف بعض رجالات القرية ، ويستمعون — بشغف داهش مدهش — الى اذاعة أجنبية بعيدة .

وكنت أسألهم كثيرا كثيرا . فلا يجيبنى أحد . ويوم غلبنى الفضول ضربنى أبى ، وأمرنى أن ألعب بعيدا .

ثم صالحنى بعدها ، وربت على كتفى .

قال ان الاذاعات الأجنبية تقول الحقيقة ، وتعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا ..

وفى المساء انطلقت الزغاريد والصرخات :

ــ عبرنا يا أولاد .. عبرنا ..

تناقل الخبر بسرعة البرق فى أنحاء القرية :

ــ عبرنا .. عبرنا .. عبرنا ..

تركت عشائى وجريت الى الشارع حافيا :

ــ عبرنا يا أولاد .. عبرنا والنبى !

تجمع الأولاد حولى فلم أكف عن الصياح .

جرينـــا مرددين :

ــ يا عزيز يا عزيز .. كبه تاخد لنجليز !!

صـــاح أحـــدنا :

ــ يا وابور يا مولع .. طش الفحم .

فنهرناه ، وصاح آخر :

ــ يا مطره رخى رخى ..

فضربناه ، وصحنا فى صوت واحد ، ونحن نتقـــاطر فى الطرقات الموحلة :

ــ يا عزيز .. يا عزيز كبه تاخد الانجليز ..

شاركنا الشيخ صلاح الأهبل ، فلم نقذفه بالطوب ، وجرينا نحو الحقول حتى هدنا التعب •

وعاندتنا الأمانى !

انتظرت محمود كثيرا ولم يعد •• نمت عند محطة القطار ، حتى ملنى الناظر •• سمعت نشرة الأخبار وبيانات الحرب ، سألت كل العائدين والجرحى ، كل الخفر ، والراكبين والنازلين •

أمرنى ناظر القطارات أن أذهب من المطر فلم أمتثل لأمره ••

قال ان أخاك مات وأنت تعرف هذا •

فرميته بالطوب وجريت باكيا ••

وفى القصب القريب رأيت الشيخ صلاح يكمن للأعداء فأهملته ومضيت •• سمعته يصيح :

ــ يا عزيز •• يا عزيز •• كبه تاخد لنجليز ••

فكرت أن أنتظر معه ، وأحضر فأسى الصغيرة ، لكن المطر كان شديدا ، فحضنت حذائى وجريت • فى البيت رأيت كومة من النساء يبكين حول أمى ويلطمن الخدود :

ــ « من قتلك يا كبدى •• يا خفيف الروح••

يا بسيط القدم » .

بينمـــا أصبح أبى ــ وقد امتنع عن الطعـــام والشراب والنوم ــ يمضى كل أيامه فى المسجد البعيد .. ولا يأتى الا لينام مفزوعا ..

نادتنى احدى النســـاء وأجلستنى على حجرها مواســـية لكنى دفعت يدهـــا ومضيت الى غرفتى وفى داخلى شىء يتمزق وينشـــال !

حتى أوقف الراديو موســـيقاه ، وقال ان العـــدو يخترق الصفوف ، ثم توقف الارسال وترمدت الدنيا ، وحينئذ سمعنا من يكسر الزجـــاج ويركل الأبـــواب ، ويجرى فى الطرقـــات كالمجنـــون :

ــ حنحارب .. حنحارب .. حنحارب !! ...

جريت حافيا مرتعبا الى هنـــاك فوجدته أبى وقد شـــق ثيابه ، وشاخت حركته ، فتجمع الناس فى لغط وملأوا الطرقات بالفئوس والمناجل ..

ثم ركبوا جميعا الى البندر البعيد .. البعيد .. البعيد ، ولم يعد واحد منهم كما ذهب !!

حـارس الغيـــوم

(م ٣ — تطهر فـارس)

حـــارس الغيـــوم

من خلف زجاج نافذة شقتى السفلية ، الموشـــاة بحبات المطر ووحل الطريق

رأيت الضباب يحجب المدينـــة ، ويغسل البيوت والشجر

ورأيت البرد والظلام •• ورأيت السكون والمطر

فها هو ذا الشتاء قد أتى ــ شـــتاء العمر ــ وها هى المصابيح الكهربية تلقى بضـــوئها الأصفر الشحوب على وحل الطريق فتلمعـــه

وها هى السنون تمضى ••

وبكارة القلب تذوى !!

هل كان بمقدورى فتح النافذة •• وترك المطر يسقط على منامتى وسريرى البارد ؟

هل أمد أصابعى كطفل صغير وألمس الضباب ؟

هل شعرت بغصة ، حين وقفت على أطراف أصابعى ، ورأيت المطر يغسل الطريق ، والريح تجرف أوراق الشجر وتكورها فى نهر الشارع ، ثم تهز المصباح المتدلى من عمود خشبى قرب النهر القريب ؟ !

هل لبست معطفى الواقى ، وبحثت عن كوفيتى وقفازى القديم ؟ •• حين دخل سيف الريح ، وبعثر فحم المدفأة ؟

لكم وددت لو أبكى فى جب ، لو أصرخ فى صحراء سادرة، لو أطفىء نور النجوم بنفخة من فمى ، لو أطرد تلك الفراشة الثقيلة •• التى تتمطى على جبال صدرى •

لكنى رحت أرقب الدموع ، وهى تتحد سيولا على زجاج النافذة • فهل كنت أرقب السيول وهى تتحد ، أم أرقب النجوم وهى ترتعد ؟ •

فكرت أن أغسل أسنانى وأنام جائعا ، وفكرت أن أحلق ذقنى وأخرج للناس شاهرا رسالة الولد البعيد ، لكنى وجدت البرد لا يحتمل ، والمعجون قد تجمد بردا •• فركلت مقعدى الوحيد ، وفتحت الباب قبل أن أختنق ثم دفعت بجسمى الى الخارج •• حيث البرد والاعتام •

My Dear Father

My Kisses and Greetings for you from The ice Countries ..(*)

كانت السيارات تمخر الشارع الطويل ، وتنثر مياه المطر على الرصيف المبتـــل ، وبداخلهـــا أناس مبتلون ، يحتضنون الدنيا .. وآخرون مشبعون بالحزن والرطوبة !

I write for you through these last distances with my hot Greeting and The Permenant love

I wish to be good

After that :

كانت العودة الى البيت ممكنــة ، حين صفعنى البرد ، وأشعل النار فى زفيرى ، لكنى لم أنظر خلفى ، حتى رأيت الغيوم تحجب النجوم ، ورأيت المصـــابيح الكهربية على جانبى الشارع تتراقص على أعمدتها الخشبية القصيرة ــ وتعكس توترها على مياه المطر فتلمعه !

ــ من ؟ .. بدران البحيرى ؟ .. هأنت ذا من جديد .. كيف حالك يا بدران ؟

(★) النص الانجليزى : رسالة من الابن المهاجر .

نظرت حولى فوجدتنى المعنى بالكلام ، فسندت ثقلى الى الحائط القريب ، وآلمنى ثقل الضباب !

ـ هيـه .. ألا تذكرنى .. ؟ أنا عمران البلتاجى .. ألا تذكرنى ؟

حدجته بارتياب ، ونفيت مبتعدا !

كان وجهه غائرا ، وأصابعه ترتجف من البرد والكهولة .

ـ ألست أنت الرقيب بدران ؟

ـ النقيب زهران !

ـ يا الهى .. كيف تنسانى يا بدران .. كيف تنسى عمران ؟

شعرت بالاختناق ، ولابد أننى تركته يقترب منى أكثر من اللازم ، لأنه قال بألفة أزعجتنى :

ـ أنا الرقيب عمران .. زميلك فى جيش الحلفاء .. حملتك بيدى هاتين من تحت دبابة الألمان . يا لها من صدفة .. ولكن قل لى ماذا فعلت يا بدران ؟

ـ فى ماذا ؟ « قلتها بتحفظ وأنا أخفى خطاب ابنى الوحيد الذى بلله المطر » .

ـ فى ماذا ؟ •• فى ساقك ؟ •• سمعت أنها بترت و •••

ـ اسكت •• اسكت !!

ولابد أنه شعر بالاهانة ، لأنه تريث قليلا •• قبل أن يسألنى بصوت خفيض ومتباسط ، عما اذا كان المعاش يكفينى أم لا •• وحين لم أجبه ، تباسط أكثر ، وكشف عن ساقه الصناعية :

ـ لقد بترت ساقى مثلك يا بدران •• ولكن فى حرب اليمن •• انظر •• ها هى •• و ••

حاول أن يكشف عن بدايتها فرددته بمظلتى المبلولة حتى يبتعد عنى :

ـ ابتعد عنى •• أنت سكران •

ـ سكران ؟

قالها وقد بدت عليه الاهانة •• لكنه ما لبث أن تدارك الأمر •• فأخرج سيجارة مبتلة ، ومدها لى فرفضت ، فأخرج كبريته المبتل ، وحاول أن يشعلها ، ولما فشل أعادها الى جيبه المبتل ، وقال كلاما مبتلا ، فهمت منه أن السماء ما تزال تمطر !!

ـ أحالونى للمعاش مثلك فلم أجد ما أفعله • هل معك سيجارة ؟

قذفت له بسجائرى فتناول واحدة واحتفظ بالباقى •

ـــ اذن فأنت لا تذكرنى •• يا للدنيا العجيبة !

قال ذا ، ومط شفتيه امتعاضا ، ثم التفت الى السحب المتصادمة ، حين لمح القذائف الملونة تطلق صوب النهر :

ـــ كل سنة وأنت طيب يا بدران •

My father. Excuse me if I write for you in English because my Arabic is not good the se days.

ـــ أمتأكد أنك لست الرقيب بدران ؟

ـــ **زهـــران •**

ـــ ألم تكن بالوحدة رقم ٤٧ ؟

ـــ **٤٨ •**

ـــ يمهل **ولا يهمل !!**

كان النـــاس ـــ على الجـــانب الآخر للنهر ـــ يمرحـــون ويرقصون ، ويفتتحون العام الجديد بينمـــا السيول ما تزال تهمى وتوحل الطريق •

But I'm angry because you do not reply on my Letter that I, had sent fo your from two years ago.

ـــ ايه •• مات الذين كانوا يأكلون فى الشوارع ، ليأكل معهم كل عابر سبيل ، وبقى من يغلق على نفسه الباب ، ولا يرد تحيتـــك •

I send for you with my candian wife Kisses Dr. Margrette my sons gemes-carol and my mother.

This is a new photo so we hope to keep our room closed as we left it.

ـــ الليل مقبض •• لكنى أشعر فيه بنفسى •• رغم أننى لا أكتب الشعر !

ـــ اذن فأنت موجود !!

ـــ هل تقول الحقيقـــة ؟

ـــ أقولها •• أليست حقيقة ؟

ـــ لا أدرى يا بدران •• لا أدرى • ولكن قل لى ماذا تعمل الآن ؟

كان السؤال مفاجئا ، وكان يتطلب جهدا كافيا لاجابته ، لكنى لم أر أى جـــدوى فى البحث عن صيغـــة توحى بأننى لا أعمـــل •

ـ لا تعمل ؟ لماذا يا بدران ؟ .. لا .. لا .. أنت غلطان !

ـ غلطان ؟

ـ نعم غلطان .. لماذا لا تشغل نفسك ووقتك و ..

ـ وهل تعمل أنت ؟

ـ أنا ؟ .. لا .. ولكنى أجلس فوق السطح !

ـ السطح ؟ .. وماذا تفعل فوق السطح ؟

ـ أحرس غرفتى من اللصوص .. وأحل الكلمات المتقاطعة .

ـ فقط ؟

ـ وهل هذا عمل بسيط ؟ اللصوص يا أستاذ فى كل مكان .. ويجب أن نحترس !

ـ يا له من عمل !!

فهم ما أعنى ، فتهدج صوته وهو يقول :

ـ ليتهم علمونا شيئا غير الزحف على البطون !

وحين دمعت عيناه ، شعرت أننى قد ورطت نفسى وأنه

ما كان لى أن أفعل ذلك أبدا .. لأنى اضطررت لأن أقول دون أن تكون لدى صورة واضحة عن شىء واضح :

ـ لكننا أدينا واجبنا تجاه الوطن .

ـ هل أدينا واجبنا تجاه الوطن ؟

ـ لابد أننا فعلنا ذلك .

ـ هل فعلنـــاه ؟

ـ ألم يعدنا الانجليز بالجلاء حين ننتصر على الألمـــان ؟

ـ وهل انتصرنا على الألمـــان ؟

ـ انتصرنا على الانجليز !

ـ بدران .. أليس كذلك ؟

ـ زهـــران .

ـ ٤٧ ؟

ـ ٤٨ .

ـ اننى فى غاية الدهشة يا بدران .. فأنا أسكن هنـــا بجوارك .. وطوبة منك يمـــكن أن تكسر زجـــاجى . فلماذا لا تزورنى يا أخى ؟ أليس لديك طوب ؟ !

قال هذا وحاول أن يضحك فلم أجد ما يضحكنى وتمنيت أن يمضى بسرعة ، أو أصحو ان كنت فى حلم . فقد علمتنى الحياة أن « نصف كلام البشر لا أهميــة له ، ونصفه الآخر يمكن تأجيله » !

كان المطر قد تحول الى سيول حين أصر « عمران » أن يشعل سيجارته ، ويبدو أنه ضاق بنفسه لأننى سمعته يهذى ويلعن الجميع .. ورأيته يلقى بما فى يديه على الطين ويصيح فى السماء معاتبا :

ـــ ماذا تريد منى ؟

سمعنى أستغفر الله فخلع نظارته الطبية ومسحها بعصبية زادتها اتساخا :

ـــ بدران أليس كذلك ؟

ـــ زهــران .

ـــ الوحــدة ٤٧ ؟

ـــ ٤٨ .

كانت مدافع الميــلاد قد توقفت ، وكف الناس عن رمى الزجاجات خلف العام القديم ، حين استدار عمران مودعا :

ـ هل تريد شيئا يا بدران ؟

ـ شـكرا .

ـ أنا أتكلم بجد .

ـ شـكرا ...

ـ طيب سـلام عليكم .

ـ وعليـكم .

ولا أعرف ماذا داهمنى بعدها .. هل هو الفرح أم الهم ؟ فقد توجب على أن أبذل جهدا ـ كان يمكن تجنبه ـ لأنسى ذلك الرجل الثقيل .

وبات على أن أعيد ذلك التوازن الذى حرصت عليه منذ سنين عديدة مؤكدا به على مجـالى الجوى وحدودى النفسية والوجدانيـة .

لكننى حين تأملت حـالى : بدت غرفتى قبرا ، وسريرى تابوتا وثيابى كفنا ، فكرت أن أستدير وأبارح المكان ، فوجدته فى وجهى :

ـ لا تسأل فيهـا .

ـ فى مـاذا ؟

ـــ فى الدنيا •• خذ ••

ومد لى سيجارة محشوة فأبعدتها وصحت منفجرا :

ـــ ولمـــاذا يكون هذا هو الحل الوحيد دائما ؟ !

ـــ وهل لديك حل آخر ؟

وحين لم أجبه ضحك ضحـــكة المنتصر ، وقـــال « ان الانسان لا يستريح فى الدنيا » •

ـــ أيها الرجـــل الأحمق المسطول •• لمـــاذا تضـــايقنى وتطاردنى ؟ •• ماذا تريد منى ؟

خرجت هذه الكلمات من أنفى المزكوم غامضـــة ، مهترئة جعلت عمران يفهمها بصعوبة ، وينتظر قليلا حتى يستوعبها قبل أن يغير الموضوع :

ـــ المهم أننا أدينا واجبنا تجاه الوطن •• أليس كذلك ؟

قلت أسايره وأصلح ما أفسدته حدتى :

ـــ أظن أننا فعلنا ذلك !

ـــ لابد أننا فعلناه •• ولكن قل لى من كنا نحارب ؟ !

ـــ الأعـــداء طبعـــا •

— أعــداء من ؟

— أعــداء الوطن !!

— الحلفاء تقصد .. أم المحور ؟

— الاثنين .

— الاثنين ؟

— الاثنين !!

— المهم أننا أدينا واجبنا .. وكفى !

كدت أقول تجــاه من .. لكنــه أشــاح بوجهه وضحك فضحــكت !

كانت الساعة قد تجــاوزت الرابعة ، وكان على الفجر أن يشق ركاما مرعبا من السحب المظلمة التى تجمدت فى السماء . وسحبت كل الطيور .

— صــدقنى يا بدران .. لم أعــد أعرف بســاذا أؤمن بالضــبط !

— وهل لابد أن تؤمن ؟ !

— ألا يجب أن أؤمن ؟

ـ ....

ـ بدران أليس كذلك ؟

ـ زهـــران .

ـ ٤٧ ؟

ـ ٤٨ .

وفى غفلة منه ، فتحت باب شقتى وأغلقته خلفى..وحينذاك غمرنى دفء وارتيـــاح ، وشعرت بالدماء تملأ رأسى وأطرافى ، وانقضت دقائق خلته قد مضى .. لكنه أفسد هــذا الاحتمال ، حين دق الباب دون أن يكل أو يمل :

ـ بدران .. افتح الباب يا بدران .. نسيت مظلتك !

صحت من خلف الباب وقد تملكنى الضجر :

ـ دعها عندك .. ورح لتنام .

ـ هل عندك شاى يا بدران .. سحلب .. جنزبيل ؟

ـ ....

ـ بدران ؟ !

ـ نعــم ؟ !

— متى ستكسر زجاجى ؟

— حين تموت تحت أنقاضه !!

وحين نظرت من ثقب الباب وجدته يكلمنى وهو يبول على الحائط القريب ، ويولينى ظهره .

My Dear Father
Excuse me about thsi long letter so I hope to accept my merci

Your Single Son :
Samir
U.S.A.

ثم رأيته يستدير نحوى فجريت الى المقعد الوحيد ، ووضعته خلف الباب وفكرت أن أسحب السرير أيضا . لكنى خشيت أن تعاودنى آلام المفاصل .

— لا تنس يا بدران سأنتظرك فوق السطح .. ها هو الطوب أمام شقتك ! سمعته يبتعد وهو يغنى لنفسه فشعرت بغربة طارئة ووحشة لم أعهدها من قبل .

وحين فتحت الباب وجدت كومتين من الطوب على جانب، ورأيت المطر يغسلهما .. ويزيدهما التماعا .. فكرت أن أناديه ليؤنسنى .. لكنى لفظت الخاطر بسرعة وتشاغلت بنفسى .. كانت أمعائى ترتعش من البرد .. وساقى الصناعية تزداد ثقلا وتصلبا ، وحين تأملت ما قاله « عمران » وتخوفه الذى يستند

الى حقيقة لا مهرب منها •• ومنطق محكم وواقعى بالفعل ، لكنه يبدو — لفرط واقعيته وزخمه — مرعبا وثقيلا ••

اذ لم لا يتوتر المرء اذا كان من الممكن أن ينام ذات ليلة•• فلا يصحو أبدا ؟

صعدت الى النافذة التى تحـاذى نهر الشـارع فرأيتـه هناك يمضى بخطوات ثقيلة نحو النيل ••

ناديته فلم يسمعنى ، فكرت أن أكرر النداء لكنى خشيت أن يسمعنى فيعود !!

كانت السحب تتصادم وترمى بالشرر ، حين رأيتـه يربت على ظهر جرو يهز ذيله المبتل تحت شجر الصفصاف بينما الجرو مستسلم للدفء والأمان •

بحث « عمران » فى جيوبه عن شىء يعطيه للكلب ، فلم يجد سوى منديل محلاوى وسيجارة محشوة •

فرش عمران منديله للكلب وأمره بالرقود فأذعن ، وما عاد يتركه حتى قام من جديد •• فعاد عمران مربتا على ظهره حتى استكان الكلب ونام على ظهره • مشى عمران عدة خطوات ، وعاود الالتفـات الى الكلب مطمئنا ، وحينذاك •• خلع ثيابه

بهدوء مدهش ، حتى صار عاريا كما ولدته أمه ، دلكت عينى عدة مرات • ورأيت الكلب يدلك عينيه أيضا •

ــ المجنون •• يستحم فى هذا الوقت ؟ !

كانت السماء تمطر بشدة ، حين تقدم « عمران » بهدوء وثبات لا يصــدق نحو النهر •• ثم •• ظل يتقدم ويغوص •• يتقدم ويغوص حتى اختفى تماما ، فنبح الكلب الصغير ، ونبش الأرض متراجعا • انتظرت أن يعود أو يقوم •• يرفع كتفيــه أو يستغيث ، شببت على أطراف أصابعى فسقط الكرسى وسقطت فى الظــلام !

فتحت الباب وسعيت نحو النهر هائما :

ــ عمران •• عمران •• عمران !

زاد الكلب من نباحه ، واصطخبت الرياح •• وحين وصلت الى هنــاك متعكزا •• كانت آخر شهقة لعمران قد أحــدثت دوامة صغيرة ظلت تكبر وتكبر ، حتى تلاشت مع أذان الفجر !

ولابد أننى أطلت الانتظار ، واستغرقنى الموقف تماما •• لأننى لم أشعر بالكلب الصغير وهو ينبح بشدة ، ويجــذبنى من ثيابى فى يأس ورجاء !

ولابد أننى ركلتـــه بعنف حين مزق ثيـــابى ، لأنه عوى مبتعدا •• ووقف يرقبنى فى صمت وعتاب • فهل كان يرقبنى أم أنا الذى أرقبه ؟ !

كل ما أدريه هو أننى شعرت بالذنب يخنقنى ، وأن ثمـــة ما يحترق فى داخلى ، ويغوص فى اللزوجة والظلام •

ولابد أننى ضربت المـــاء بعكازى ، لأننى شـــعرب به على وجهى •• فسعيت متعكزا متعثرا الى شقتى ، وقد ملأ الطين قدمى العارية ، وقلبى الواجف •

وعند الباب وجدت كومتى الطوب تلتمعـــان تحت المطر ، ملأت كفى بما تيسر ، ورجمت النهر اللعين ، فسمعت زجاجا يتحطم •• ورأيت قنابل تتفجر •• وعواء يتجدد ، فأغلقت بابى الوحيـــد •• وارتميت على سريرى البارد ، وشـــعرت بالزرقة تغزونى ، والحزن يخنقنى ويكوينى •• فيما شخصت عينـــاى الدامعتان •• المقترحتان •• الذاهلتان •• الى فراغ النافذة !!

تطهـــر الفـــارس

تطهــر الفــارس القــديم

من ثقب باب غرفتى رأيت « بابا » يقطع الصالة على مقعده المتحرك ، وينفث الدخــان بقلق واضطراب !

وحين طلب قهوة جديدة ، حاولت ماما أن تؤجلها ، لكنه صرخ فيهــا وأمرها بالاذعــان فأذعنت • ثم قطع الصــالة من جديد •• وفتح « الراديو » فتوقفت الموســيقى العســكرية وأعلن المذيع أن العدو يخترق الصفوف وأن الـ ••••

صرخ أبى بأعلى صوته ، ولطم « الراديو » فحطمــه •• ورأيت دمه ينثال على كفه فأغمضت عينى وانزويت !

حينذاك أسرعت ماما اليه ، وحاولت آن تساعده ، لكنــه نهرها من بعيد ودفن وجهه بين راحتيه ، وسمعناه يغمغم بانكسار وارتيــاع :

ــ مستحيل •• مستحيل !!

فيما أسرعت ماما الى غرفتى ، وأخذتنى الى حضنها ، بينما الانفجارات تتناهى من بعيد ، وتصبغ السماء بلون الدم •

كان الليل قد انتصف ، حين غرقت المدينة فى الظلام والصياح •• وسمعنا المجنزرات تعبر الطريق المشبع بالمطر ، وأبواقا تأمر بالسلام والاستسلام ، و « سارينات » الحريق والانقاذ تبتعد وتقترب • بينما السماء تبرق بالبارود والمطر ، وتختلط الرعود بالبروق •

حينذاك طلب « بابا » بندقية جدى القديسة ، وقبل أن تتكلم قال :

ـ لا تهم الذخيرة •

وحين أطفىء النور سمعناه يمضى نحو « البلكون » المتربة وأزيز كرسيه يزداد انفعالا •

***

قبل انقطاع الحرارة اتصل خالى ونصحنا باغلاق الغاز وصنابير المياه •• ورجانا أن ننزل الى المخابىء فورا •• لكن أبى رفض ذلك ، وأكد أن المرء لا يجب أن يطلب من الجندى ترك موقعه كى ينجو بحياته • وسمعناه يحد السكين ويضعه

موضع « السونكى » ، وقرب الفجر سمعناه يضحك ، ويأمر جيوشا لا نراها ، فخافت ماما ورجته أن يدخل من البرد والظلام. ويكفى ما حدث لنا ..

« فمازلنا نذكر يوم رأينـاه مضرجا بدمائـه
ولا يذكر أسماءنا ..

يوم تلهفنا على « آهة » منه توحى بأنه على
قيد الحيـاة !

ويـوم نادانى سـقط القلب منى .. وحين
تحسست طريقى اليه شـعرت بقلبه ينبض كطـائر
ذبيح ، وساقيه المبتورتين تنغرسان فى بطنى ..

بينما الكشافات تمسح السماء الحبلى بالرعود
والمطر ..

فهل آن لليل أن ينجلى .. أم آن للقلب أن
ينفطر ؟ »

* * *

لم يغضـب أبى حين ماطلوه فى « المعاشـات » ولا حين تخطوه فى السفر للعلاج بالخارج !

كان يعرف أن أطباء الدنيا لا يمكنهم اعادة ساقيه ، ويعرف أن الفشل يبدد الرجاء ، ويعرف أن المـال وسيلة ، وأنه يحقق غاية من « غايات » الانسان المتجددة .

لذلك لم يغضب حين سلم سلاحه ونجوم كتفيه ، ولا حين تصلبت يده وهو يصافح رفاقه مودعا ، ولا حين رأى الزبالين يبنون العمارات ويسكنون الأعـالى ! كان يعرف أنها مرحلة ، ولابد أن تنقضى . وأن الحروب لا تنتهى بوقف اطـلاق النار . لكن حربه الحقيقية بدأت حين أوفدت البلدية من يزيل السواتر ، ورآهم يهدمون الســور الطوبى من أمام عمارتنا . ويزيلون اللون الأزرق عن النوافـذ والسـيارات ورأى من يبول فى المخابىء .. ويملؤها بالقمامة .

كان يصيح من البلكونة التى تشبه البرج :

ـ الحرب منتهتش يا أولاد الغجر ..

فيتغـامزون ويتلامزون . يقـذفهم بما فى يده فيطلبون المزيـد !!

يجيل بصره فى الميـدان الممتـلىء ـ ما يزال ـ بطـوب السواتر .. وحطام المدافع القديمة ، وحين يعود لغرفته آخر الليل يشـعر بألم فى صـدره .. يشـكو من خدر فى نصفه الأيمـن .

من مرارة القهــوة .

ومن الجرائد التى لا تتغير أبدا .

يأتى الطبيب وينفى ما يزعمه فلا يصــدقه .. يهاجمــه ويشــكك فى علمه . فلا يملك الرجــل ســوى أن يكتب له « مسكنات ومهدئات » بعد أن تؤكد ماما أنه لا ينام ، وان نام فانه يهب فزعا ، وينبطح على الأرض .. يركل اللحاف ويقذف بالوسائد .. ينادى على أســماء لا نعرفهــا ويأمر بالهجوم فتصحو أمى وتغطيه !!

ــ يا أولاد الـ .. الحرب منتهتش .

ويرنو لصورته على الحائط البعيد .. من هذه النقطــة بالضبط دخلت الشظايا .. ومن هنا بترت الساقان .. ومن هنا لمست الكتف ، ومن هنا مزقت « القايش » ، ومن هنا دنت من القلب !

وفى هذه الصورة تبدو نجمته الأولى على كتفه العريض . يمناه مرفوعة أعلى حاجبه وعيناه تنظران بثبات وامتنــان لقائد لا نراه فى الصورة .

وفى هذه الصــورة يضع يسراه على كتف أمى .. البدلة « مكويه » والحذاء جديد ، والعروس ترنو اليه بعين أم . فلاحة تخاف على فرخها من صقور مصر ، وبنات مصر !

القفاز : أبيض ، ومشغول بالدانتيل ، وباقة الورد : لا تخفى فرحة القلب .

والتاج : لا يخفى لمعة العينين !

وفى هذه الصورة يحملنى على صدره المشعر ، والبحر من حولنا يلطم الوجوه ، يطاردنى فيزداد صراخى . أجرى الى أمى فينحسر البحر ، وتخجل الرمال .

نأكل الكابوريا فى المنتزه ، ونأكل الفيشار فى محطة الرمل . وحين تنتهى الاجازة نعود للسويس مضمخين بعطرك يا ثغر ..

فهل تمضى الأيام كما نشتهى نحن ..

أم تأتى الريح .. بما لا تشتهى السفن ؟

* * *

عاد الراديو يتحدث عن اختراق الصفوف ، عن حرق « الجناين » ودخول « الدفرسوار » فعاد أبى وأدمى راحته .

أسرعت ماما « بالميكركروم » لكنه رفض ، وسمعت أزيز كرسيه يزداد انفعالا . فتحت باب غرفتى فرأيته كاملا .. على مقعده ، بينما سترة الميدان معلقة بنجومها ودمائها على الحائط

البعيد • « والبشكير » القطنى الثقيل ينزلق رويدا رويدا فيكشف عن ساقيه المبتورتين •

* * *

كانوا قد انتحوا بعمى جانبا ، وسألوه ان كان يرغب فى دفن ساقيه ، أم يتصرفون بمعرفتهم ؟ ثم انتحوا بأمى جانبا ، وسلموها شنطة بها ساعته ومذكراته وحافظته ، ونيشان قديم أزيل عنه الدم •

وشعرت بمن يربت على كتفى ويسألنى عن دراستى •• فرأيت العنبر مكتظا بأناس غير أبى ، ودموع غير دموعى •

رؤوس مضمدة ، وسيقان معلقة ، سواعد فى جبائر •• وأجسام بلا سيقان ولا سواعد •

صراخ وسيارات وامضة ، « يود » و « فورمالين » و « ديتول » ودم •

أشباح بيضاء تجرى فى الطرقات هائمة ، وأشباح تتلوى على عجلات تجرى • كشوف بأسماء الموتى ، وكشوف يتهافت عليها الأحياء !

دموع واغماء خارج السور الحديدى •• اصرار ••

وشجار •• ورجاء •• وعويل ، لافتة تحدد الزيارات وأسماء المرضى •• ويد تمتد من السماء وتختار !!

بيانات نارية يطلقها المذياع • وصفارات تدوم وتنقطع •

لافتة تضيء وتنطفيء •• تعلن عن مستشفى الـ •••

قالوا لعسى :

ــ لابد من القاهرة •• امكانيات أوفر ، وأمن أكثر •

وقالوا لأمى :

ــ السويس فى خطر •• قد نحاصر •• وقد نحتل •• اهربى بجلدك •

وأشاروا لحديقة المستشفى وقد امتلأت بالأسرة ، ورأينا الجراحات تتم فى الطرقات والمطابخ •• وتكلموا عن ندرة المياه ، ومحنة الجيش الثالث وانتشار الفئران والحرائق والأوبئة •

وكانوا على حق •

فما كدنا نغادر السويس ، حتى سمعنا عن حرب الشوارع •• عن محمود زرد وعبد العاطى ، وشفيق عبد السلام • عن العجوز التى فتحت دبابة ، وألقت بقنبلة •

عن الصعيدى الذى حضن صاروخا ــ قبل أن ينفجر ــ وغرق فى القنـــاة •

عن الشجرة التى سقطت على الطريق فعرقلت كتيبة •

وسمعنا الاذاعات والنشرات والبلاوى • وسمعنا الراديو يقول « يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى •• استشهد تحتك وتعيشى انتى » •• وسمعناه يقول :

« خل السلاح صاحى •• صاحى •• صاحى » •

وسمعنا أنين أبى •• ورأينـــاه يتفحصنا بنظرات ذاهــلة متسائلة •• بينمـــا عربة الاســعاف تشق الطريق الترابى الى القـــاهرة •

لبرهة قصيرة فكرت فيما يمكن أن تؤول اليه الحيـــاة بعد موته فلم أستطع وكدت أجن •

لكننى تمليته وكأننى أراه لأول مرة ، وأدهشنى أننى لم أكن أعرف أبى كل المعرفة •

لم أعانق تفاصيله وملامحه كما ينبغى •

وعرفت أن معرفتى له كانت معرفة كلية شـــمولية تشوبها العاطفة وتغلفها الألفة والاعتياد •

فهالنى أن أكتشف صفاء بشرته .

وأن أرى شاربه بكل هـذا الجمال والانتظام .

أو ألمح فى جبهته كل هـذا الامتداد الملكى النبيل .

تفاصيل يخفيها « الاحساس » بالمعرفة ، ويدعمها غيابه كمقـاتل فى الميدان ، كنـا نعرف أنه يأتى ليستريح من رتابـة الصحراء .. وظلام المخـابىء .. ولكن هـل كنـا نعرف أنه سيأتى على نقالة ؟ !

كان هذا الاحتمال قائما ، حين رفض أن يعبر القنـاة سنة ٦٧ وتمنى أن يأخذ سـيناء فى حضنه . لكن زميلا لا يذكره دفعه الى القناة ، وصاح فيه :

ــ اسبح .. اسبح اهرب بجلدك .

فلعن اليوم الذى تعلم فيه السباحة ، ولم يشعر بملح البحر على خدوشـه ورضوضه الصغيرة ، لكنه شعر وهو فى منتصف القناة أنه لا يسبح ، ولكنه يضرب الدنيـا بقبضتيه .. يضرب نفسه .. يضرب من خانوه ، وأهانوه ، وسحقوا كبرياءه .

ولم يدر بما حدث .. لكنه عرف أنهم سحبوه قبل أن يغرق وسلموه لـ « معسكر التجمع » بعد أن فقد سـلاحه وخوذته وحافظـة نقوده وقناعاته ووجد نفسـه فجـأة بين

أبطال وجبناء .. أعداء وأصدقاء ، فطاح فى الجميع ضربا وعضا .. وتركهم يضربوه حتى عاوده الاغماء .

رفض أبى أى تهجير وأكد أنه مقاتل ، وأنه مازال تحت العلاج .. لكن القائد ربت على يده وقال له :

ــ استرح يا عقيد زيدان .. فقد أديت واجبك .. وعليك أن تحافظ على حياتك وحياة أسرتك بعيدا عن أى تهديد . وقبل أن يتكلم أبى قال القائد :

ــ حقوقك ستصلك كاملة وسندعوك لتتسلم الوسام .. و .. حاول أن يصافحه لكن أبى استدار بكرسيه ، ورفض أن ينتهى الأمر .

قال انه لن ينهى حياته فوق سطح مدرسة ، أو فناء جمعية زراعية « أنا مقاتل أمضيت عمرى بين جنودى وضباطى. من أجل هذا البلد وضعنا أرواحنا وسعادتنا على أكفنا » .

ــ لكننا لا نضمن حياتك فى السويس !

ــ وهل تضمن حياتك فى برج مشيد ؟

ــ الأعمار بيد الله . لكن لا تنس ان هناك دواعى أمن و ..

ـ أنا لست سائحا يا سيادة اللواء • أنا من طين هـذا البـلد •

ـ نعم ولكن كيف نضمن ألا تثير المتاعب ؟ •• التقارير تشير الى حماستك الزائدة ، ونحن لا نحب أن يتدخل أحد فى سير المعـارك أو اجراءات الأمن •

ـ ولكننى مقـاتل و ••

ـ كنت يا سـيادة العقيد •

انغرزت هذه العبارة فى صـدر أبى كالسيف المسموم •• لقد ووجه بما كان يخشاه ، ويؤجل سطوعه •• فبادر القـائد بالاعتذار ، وأكد أن فهم الحقيقة خير من تجاهلها • نحن بطبيعة الحال نقدر شجاعتك الفائقة •• اذ لا يوجد قائد يفتح حقل ألغام بقدميه ، أو يتقدم الصفوف بهذه الطريقة التى أراها ـ من جانبى ـ انتحارية •

ـ لكننى تقدمت واخترقت الصفوف ومنحتكم ظهرى •• فلا أنتم ساعدتمونى ولا حميتم أنفسكم •

ـ عقيد زيدان لا تنس أن الحرب قد انتهت • وأننـا الآن نتكلم عن ماض فات ومات وأنت تعرف أن بناء عشة خير من البكاء على أطلال قصر • فما هو ضمانك ؟

ـ هـذا .

وأشار أبى الى مقعده المتحرك ، فبدا الرجل وكأنه اكتشف ذلك لأول مرة فاعتذر .. ولبى طلباته فورا . فهل كان يعرف النهاية ؟

***

البداية لم تكن سهلة بأى حال !

اذ أمضى أبى عدة شهور يتدرب على مقعده الجديد ، ويتعلم كيف يدير اطاريه المعدنيين ، وكيف يتقدم ، ويستدير ، ويتخطى عتبة المرحاض . لم تكن البداية سهلة بأى حال !

اذ كان يرفض أن يساعده أحد فاحترمنا هذه الرغبة حتى لا تتفاقم عذاباته .

وحين ينام نرقب العنت الذى يلاقيه حتى ينتقل من مقعده الى سريره . وحين نفتح الباب لنساعده يصرخ ويخفى ركبتيه.. وكأنه تعرى فى ميدان عام ، تطارده الكوابيس فيصحو ولا ينام .

يضيق بعجزه فيحاول النزول فيسقط ، يحاول السير على ساقيه فلا يستطيع ، يطلب الأكل ولا يأكل . يشعل سيجارة

ولا يكملها .. نكلمه فلا يطيل .. ترجوه أمي أن ينزل الدنيا عن رأسه ، ويعرف أن حدوده تنتهي عند باب شقته فيثور ويزجرها .

يتحسس سترة الميدان التي حجرها الدم .. ويضمها الى صدره كأنه طفلة تضم عروستها .

يكتب على ورق ويمزقه .

يحاول أن يضبط ساعته فيجدها مضبوطة .

ينظر الى النوافذ المغلقة .. فينقبض قلبه .. وتربد ملامحه ..

ينظر الى ثقب بابي فتتجمد دموعي .

* * *

النهاية أيضا لم تكن سهلة .

اذ رفض أبي أن يسلم سلاحه ، قال ان كانت حربكم قد انتهت .. فحربي لم تنته بعد ، فانسحب الملازم معظما .. وفي المساء اضطر قائد المنطقة أن يصعد بنفسه ، وأن يطوق المكان بالحراسة اللازمة .

— ألم أقل لك انك ستسبب لي المشاكل ؟

قال اللواء ذلك حين فتحت الباب وأصبح على قيد مترين من أبى :

ـ زيدان لابد أن تعرف • انه ليس سلاحك • وان الجيش قد جمع ما وزعه على رجال المقاومة الشعبية • اعقل يا زيدان •• أنت تعرض نفسك للمحاكمة وتعرضنى للحرج •

وظل يقترب رويدا رويدا حتى لامس كتف أبى ، وبين دهشة الجميع وذهولهم ، سحب أبى المسدس من تحت مقعدته ، وصوبه نحو القائد الذى وقف مبهوتا • وفى آخر لحظة •• ودون أن ينبس بكلمة ، أدار المسدس وسلمه للقائد • الذى سلمه بدوره لأحد الضباط • وربت على كتف أبى مواسيا ومتسامحا •

وقبل أن يغلق الباب خلفه صاح أبى مؤكدا :

ـ « ان كانت حربكم قد انتهت •• فحربى قد بدأت » !

فضحك الرجل وقال ان بين الحرب والحرب فنجان شاى •• والمجد لمن يستمر •• ولمن يضحك فى النهاية •

* * *

بدأت الناس تتكلم عن التعمير .. وعن فتح القناة ، ولم نصدق حتى رأينا أول « كراكة » وأول « عربة أسمنت » .

فى هذا اليوم بالضبط « فتح أبى حدوده » ، فنزل الى الشارع لأول مرة .. وكلما تلفت حواليه ازداد قلبه انقباضا . وانحسرت سعادته ..

كانت السويس ما تزال تلعق جراحها .. وترنو للبعيد ..

وعلى صـــدرها تنـــام أنقاض .. وشـــظايا .. وحرائق خامــدة .

عمارات تتساند وأخرى لم يبق فيها ســوى جدران .. صور لأحباء وموتى ترنو الى المدينة من « براويز » مائلة .. أسرة تعلقت بين السماء والأرض ، كراريس أطفال كتب فيهـا نصف « الواجب » . وأحذية لم تلبس بعد ، أبواب يفتحهـا الهواء ويغلقها ، حرائق تهب وتخمد ، تطول وتقصر ، أوان ثقبها الرصاص ، وأخرى يؤرجحها الهواء فى المطـابخ .

دروع ممزقة . وطيور نافقة !

متى حدث هــذا .. وأين كان ؟ هل حدث كل ذلك فى غيابه ؟ أثناء نومه ؟ وماذا يقول لأصحابها حين يعودون .

تمنى لو أزال الانقاض بكفيـــه •• لو واتته القدرة على بناء ما تهدم •

لو يطمئن على « الزيتية » و « الأدبية » ، لو يمشى الى حى الغريب •

لو يحتضن كل الأماكن التى عرفها •• وعشقها •

الشجر الذى تظلل به ، وأكل من ثماره •

« الكورنيش » الذى شهد ذكرياته ، وحبه الأول •

الأمل الذى تعلق به ، وراهن عليه بعمره •

والآن •• وبعد أن انتهت « الكراكات » من رفع الألغام وحطام السفن وعاد المهجرون وتبادلوا القبـــلات والدمعات •• وضبطت الساعات والمشاعر ، لبس أبى أحلى ثيابه بعد أن استحم وتعطر وكأنه ذاهب لعروسه ، وبين دهشة الجميع نزل بمقعده على ســـلم العمـــارة دون أن يســـاعده أحد ، فزغردت « ماما » وشعرت بالأرض تميد تحت قدمى •

جريت الى « البلكونة » فوجـــدته قد أزال « شـــكائر الرمل » ووضـــع بندقيـــة جدى فى مكانهـــا القـــديم • ومن « البلكونة » رأيت النـــاس تحمله على أكتافهـــا وهو يضحك ويصافح الجميع •

وحين وصلنا لمقهى الميناء استقبله عم وهدان بالأحضان والقبلات ، وبعد أن تأمل ساقيه .. ابتعد ليخفى دمعتيه .

وحين وجد أبى نفسه فى مكانه الأثير .. تفجرت عواطفه . ففى هذا « الروف » الذى لم تدركه القنابل قابل خطيبته قبل عشرين عاما .. ومن هنا رأى كتف آخر جندى انجليزى ، ومن هنا رأى فرحة التأميم ، وقاوم الحلفاء ، ومن هنا خطف أول قبلة ، وشرب أحلى ليمونادة .

فهل آن للقلب أن يستريح .

* * *

لم يستطع « بابا » مقاومة دموعه وهو يرى النوارس تعود من جديد ، ورأى أول « طلبية » لزبائن المقهى الأثير ، وأول سفينة تعبر القناة ، وأول طائرة مدنية ، وأول طفلة تلعب بدميتها ، وأول جريدة تدخل ، وأتوبيس عام يتحرك .

شعر بأنه ساهم فى هذا فدمعت عيناه . وهو قاعد بين أصحابه ، هو الذى وضع فى جيبه كل مفاتيح المدينة ..

كان يستطيع أن يفتح شقة سعدون فى غيابه ، ويطمئن على « عفش » شوقية .

يتفرج على تليفزيون أم أحمد ، ويفتح ثلاجة عبد المسيح •

يأخذ سنارة هويدى ويقرأ فى مصحف الحاج مسعود •

يقرض أم بيومى ويعزى المقدس بباوى •

وهو الذى حمى بيت محمود ، وأنقذ سيارة فتحى فى غيابه •

وهو الذى دفن أم سعفان ، وستر فتحية بمحروس •

وهو الذى بنى جدار الجامع ورمم محراب الكنيسة •

وهو الذى عرض كليته لانقاذ جندى لا يعرفه ، وروى زهور المستر ميشيل فى غيابه •

لم ينظر لنجوم كتفيه ، أو يكلم الناس من أنفه ، ولم يشغله أنه ضابط وعلى الآخرين أن « ينضبطوا » •

كان يعرف أنه مواطن بدرجة مقدم ، وأن من يخدمه الآن ربما ساهم فى دخوله الكلية أو عشاه ذات ليلة أو سقاه ، أو أنقذه من غرق ، أو علمه فى مدرسة أو أبرأه من مرض ، أو شارك فى عرسه ، وربما شارك فى وداعه !

هم أهله وبلدياته •

جزء من عجينته وحرارته •

يعرفهم بالاسم ويعرفونه .

ويعرف الجد الذى حفر ، والجد الذى هرب ، والذى قتله الالبان والمماليك ، من الجنوب جاءوا ومن الشمال . « القيد فى اليد ، والدمع فى القلب » !

من الشرقية جاء جده الكبير . فلاح لا يعرف الكتابة ، لكنه يعرف أسرار الأرض . شرقاوى يعرف أدهم ، ويحكى ما جرى للهلالى وابن شداد .

قالوا احفر فحفر ، ارفع فرفع . ازرع فزرع وبعدها تزوج وعاش فى السويس ، لم يقطع الطريق على أحد ولم يشته امرأة جاره . صبور يعرف حدود الصبر ويعرف شعلة الايمان .

شرب أبى قهوته وتابع المشهد من بعيد .. ها هى القافلة تقترب ، وها هى الزغاريد تطهر المكان ، وها هو محروس البمبوطى يعرض « عادياته » من جديد ، شاب شعره نعم ولكنه لم يفقد ابتسامته ، وها هى المعلمة جمالات تفتح دكانها .. فقدت زوجها فى الغربة اللعينة ، ولكنها أنجبت طفلين ، وها هو حلمى الفوال وسعيد الحلاق ومحمود الفطاطرى ، ووليم البقال ، وبدوى الحداد ، والكابتن بيومى مدرب الأشبال . ها هم السوايسة أهله وعشيرته . أولاد

الأرض وعطرها الباقى • بسمرتهم ، ويفاعتهم المميزة • نسوذج معدل من سكان مصر :

من « السيناوية » أخـذوا قوامهم ، ومن « الشراقوة » كرمهم ، ومن « السواحلية » شطارتهم ، ومن « البحـاروة » طبيعتهم وحبهم للأرض •

يبيع لك الهواء ولكنه لا يخدعك ، وان آحبك دفع على شرفك كل ما معه ، وان عاركك كان أول معتذر !!

وها هم أولادهم الذين هجروا ، أو ولدوا فى الغربة • لم يرهم نعم ، ولكنـه لو أمعن قليلا اعرفهم من عيونهم التى لا تكذب ولا تخون •

فهل آن لهم أن يبنوا أعشاشهم ؟ خنادقهم ؟ قبورهم ؟

ليتقدموا الآن وليرفعوا عن صـدره شعلة أوقدها بدمه ، آه •• ما أثقل القلب !!

* * *

كانت قافلة السفن قد تجاوزت المدينـة ، حين ودع أبى أصحابه ، وطلب أن أرافقه الى البيت •

وفى منتصف الطريق طلب ــ لأول مرة ــ أن أدفع مقعده لأنه لا يستطيع !

بينما الراديو يصيح من بعيد : « خلي السلاح صاحي .. صاحي .. صاحي » ونحن نقطع الطريق الذى بدأت أنواره تعسل على الجانبين وتعكس زبد الخليج ، وأمواجه الهادرة !

أشار أبى أن نتوقف قليلا ، ورأيته يرنو الى الشاطىء البعيد ، وقد نامت عليه النوارس .

وسمعنا نكات البحاروة على الصعايدة ، والصعايدة على البحاروة ، فضحك أبى لهذا وذاك وألف نكتة عن السوايسة لكنه لم يكملها وطلب أن أتركه هنا ، وأذهب الى البيت فرفضت ، وحين أصر ذهبت وأتيت بأمى لتقنعه وترجعه ، وكان الهواء قد تحول الى ريح .. والأمواج الى ما يشبه الاعصار ، والراديو البعيد ما يزال يردد : « خلى السلاح صا .. ! .. ا .. حى » والكروان يشق بصياحه الظلام ، وحين اقتربنا منه وجدناه ما يزال يرنو الى الخليج ، وقد تجمد فمه على بسمة راضية أخيرة ، فصرخت أمى وشعرت بما حدث ، بينما البشكير القطنى الكبير تطوحه الرياح هنا وهناك دون يد تلمه ، أو عين تزيحه وتضمه . فيتكور تحت الساقين المبتورتين، مرة على شكل نوارس نزقة ، ومرة على شكل طائر خراف .. يرفض أن يطير !!

الجمـــــل

الجمـــل

للمرة العشرين قامت أمي وقعدت •

وبعد أن قامت وقعدت ، قامت وقعدت !

حاولت أن تدخل غرفة العمليات فمنعها الناس وأعادوها الى صالة الانتظار ، فقامت وقعدت ثم قامت وقعدت ، وفى كل مرة يصدر مقعدها أنينا يتكرر ، ودعاء يتحرر !

وكلما صرخ شقيقى ، دفعتنى الى خالتى وجرت اليه هائمة مخدرة ، وبعدها تعود مكلومة دامعة •

وحين تلحظ دمعى تأخـذنى الى حضنهـا ، وتحـاول الابتسام فلا أصدقها •

وحين تسمع صراخه تدور حول نفسها :

ــ ستعيش يا ولدى •• ستعيش يا كبدى !

تغمغم فلا يسمعها أحد •• وبين الحين والحين تفرك كفيها وتنادى عليه فلا يسمعها •

وعلى الأرض الرخامية تتقاطع خيوط دم قانية ، ومن خارج السور تأتينا صفارات الانذار وصراخ العسكريين ، وصرير الدبابات على الأرض المبتلة •

فتقوم أمى وتقعد •• تنادى على « يوسف » فلا يرد ولا يجيب ، تمد فى اسم أبيه وأجداده فلا يأتى ، ولا يستجيب • وحين ترى ممرضا أو طبيبا تجرى اليه متسائلة • ثم تعود وهى تمسح دموعها بطرحتها السوداء التى لم تغيرها منذ مات أبى !!

وحين يتجدد الأمل ، أسمعها ترد على أسئلة لا يسمعها أحد سواها ، تغمغم :

ـــ يوسف •• ماذا بقى فى القلب ؟

ـــ يوسف •• ماذا بقى فى العين ؟

وفى كل مرة تأخذ شالها وتذهب لتغطيه ، فتعود وهى تمسح به عينيها •

وكلما جاء مقاتل جديد ، تقوم ولا تجلس قبل أن تنتصف ساعة !

تأخذني الى حضنها ، فاسمع وجيف قلبها وأشعر بدمعها على كتفي : حصوتين من الملح والخل !!

فلماذا يأتي الناس مخضبين بدمائهم ؟

ولمـاذا يرحل الأصدقاء ، وتعز الأماني ؟

قـالوا : الكهرباء قطعت ، ولا يوجـد « بنج » لكل النـاس •

وقـالوا : انها الحرب ••

فقامت أمي وقعدت ، ثم قامت وقعدت ، وعلى النـافذة البعيـدة وقف عصـفور بلا أب ولعق جناحيـه المبتلين •• وما كاد يسـمع أول صرخـة ، حتى طار فزعا في سـماء بدت ضيقة ورمادية !!

وحين خرج الأطباء منكسي الرؤوس ، سمعت صرخـة أمي الكليمة ••

ورأيت عزرائيل يقوم متثائبا تعبا •• ويغادرنا ــ صامتا ــ الى هنـاك !!

صـــدر للمؤلف

● سبع وريقـات شخصية :

مجموعة قصصية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٣ .

رقم الايداع ١٩٩٦/٤١٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N.977 — 01 — 4750 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب